أرمـــــلة

عن الفرنسية

كان ذلك فى أوان الصيـد فى قصر بانفيل ، والخريف مطير حزين ، والأوراق المنتثرة ذابلة محمرة لا يسمع لهـا تقصف تحت الأقدام ، بل تعطن فى السكك بعدارج المجلات تحت شـآبيب الديم الهطالة

وكانت الغابة وهى جرداء إلا قليلا تشبه الحمام من الرطوبة . فإذا أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالى يصفقه وابل الطرشملك رائحة محمة وهبوه ماء من العشب المخضل والأرض المبتلة

والصيادون حناة الظهور يدبون تحت هذا الفيض الهتون ، والـكلاب محزونة ذيولها مرسلة ، وشعرها ملتصق بآطالهـا ، والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة لاصقة مشربة بالبلل ، وهم كل مساء يؤوبون من الصيد أنضاء جسم وعقل أجمعين

وفى البهو الـكبير بعـد العشاء يجتمعون إلى لعبـة الورق متقارعين ، من غير انبساط ولا لذة . وللريح فى الخارج هبـات مدوية تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة ، وتبتدر دوارات الهواء فوق الأبراج فإذاهى من دوران كالخذروف الدوم .

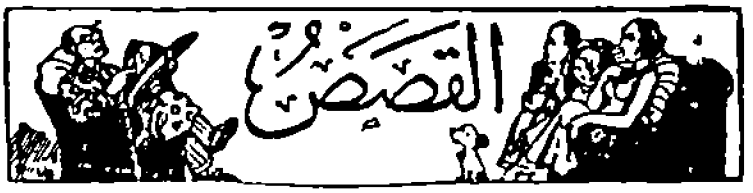

فأرادوا أن يسمـروا بالحكايات كما تروى فى الـكتب ، ولـكن الله لم يفتح على واحد منهم بابتداع حكاية مسلية . ومضى الصيادون يقصون ما وقع لهم أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم للأرانب ، وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالا كخيال شهر زاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة . وكادوا يكفـون عن الأحاديث . وكانت إحـدى الغانيات تعبث خالية البال بيد عمتها العجوز ، وهى عانس لم تتزوج ، فلحظت خاتما صغيرا من شعرات شقراء طالما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه

فسألتها وهى تديره فى إصبعها بلطف : « ألا قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لـكأنه شعر غلام يافع ... » فاحمار وجه العانس ثم اصفار ، وأجابت بصوت متهدج : « إن الأمر محزن جـدا ، محزن جدا ، حتى لست أحب الـكلام عنه . وكل ما فى حياتى من الشقاء فهذا مصدره . لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئـذ ، وما زالت تلوعنى الذكرى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى »

فتلهفوا إلى سماع الخبر ، وأبت العمة ذلك عليهم ، فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الأمر :

« كثيرا ما سمعتمونى أتحدث عن أسرة سانتيز ، وقـد انقرضت اليوم جميعا ، ولقد عرفت الثلاثة الرجال الأخر من هذا البيت ، والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات الأخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلى . لقد يبدو لـكم الخبر غريبا ، أليس كذلك ؟

آه . لقـد كانوا معشرا عجيبا من المجانين ، إن شئتم هـذه التسمية ، ولـكن مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعا — أبا

ويطرد وزن فعل بضمتين فى جمع فعول

سادسا — الجسم بضمتين الأمور العظام ، (البستـــان ص ٣٦١) وهى جمع جسيم ، كقضيب وقضب بضمتين

سابعا — الرم بضم الراء المشددة ، الجوارى الـكيسات ، وهى جمع رامة ، وقد ظنها الناقد بكسر الراء فـكتب ما كتب دون أن يعود إلى المعاجم ، والمعنى أن النساء على ما فيهن من كياسة وظرف ، كن يمشن كالجوارى والإماء قبل عهد الرسول (ص) فلما اشترع حقوقهن كان أول من نادى بهذه المأثرة الاجتماعية ، ونصيحتى إلى السيد الصعيدى أن يعيد قراءة هذه الدرة الثمينة بعـد استبدال عدسة منظاره بعدسة ناصعة ، فالإنصاف واجب فى مثل هذه الحال ، والسلام

دمشق حمدي بابل

عن جد — أصحاب عواطف عارمة جامحة ، تدفعهم من كيانهم كله دوافع قوية إلى أبعد السبحات وإلى التفانى وفرط التحمس، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم ؛ وهذا منهم بمقام فرط التدين فى بعض النفوس . وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين رواد المجالس أزيار النساء . وكان يتردد فى أوساطهم وبين ذوى رحمهم قولهم : « عشق كعشق بنى سانتير » ، وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم . فكلهم شعره ذو خصل منسدلة على الجبين ولحيته جعدة وعيناه واسعتان ينفذ شعاعهما فى نفسك فيلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سببا

وكان جد الغلام — الذى رأيتم فى إصبعى تذكاره الوحيد — له مغامرات عدة ومبارزات وسبى واستباحة للحريم . وقد هام بعدها وهو فى نحو الخامسة والستين بابنة مؤاجر ضياعه . وإنى لأذكرهما . وكانت شقراء شاحبة اللون ، حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدة وفى صوتها لين وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية فى الحلاوة كأنها نظرة العذراء فى صور الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده ، وسرعان ماأصبح متيما بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنته وامرأة ابنه القيمتان فى القصر بجدان الأمر طبيعيا لطول ماقر الحب فى تقاليد الأسرة . فالموضوع مادام محوره العشق فليس فيه ماتستنكرانه وتتعجبان منه . وإذا دار الحديث أمامهما عن هوى قامت الموانع دون قضاء لباناته ، أو عاشقين فسد مابينهما ، أووقائع الانتقام من الخيانة أونقض العهد قالتا معاً فى لهجة شجية : « له الله ! أو (لها الله) لشد ماقد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر هذا المبلغ ! » ثم لم تزيدا على ذلك . وإنهما لترقان لمآسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابها ولو أجرموا

إلا أنه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب فى عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جراديل فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانتير هادئا كأن لم يحدث شئ . وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقا بمرقد الكلاب وهى حوله

وقد مات ابنه مثل هذه الميتة فى فندق باريس فى أثناء رحلته سنة ١٨٤١ ، على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك بعده ولدا فى الثانية عشرة وأرملة هى أخت أبى . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا فى بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعا

ولايسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانتير مدهشا باكر النضوج قبل الأوان . وإنه ليخيل إلى المرء أن جميع صفات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس جائشة قد اجتمعت فيه ونزلت به ، بهذا العقب الأخير . وكان على الدوام حالما ، يتمشى وحيدا ساعات كاملة فى ممشى رحيب بين أشجار الدردار الممتدة من القصر إلى الغابة . وكنت أرقب من نافذتى هذا الصبى الرقيق الوجدان وهو يسير وقور الخطى ويداه خلف ظهره مطرقا إلى الأرض ، وأحيانا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان فى سنه

وكثيرا ما كان يدعونى للخروج بعد العشاء فى الليالى المقمرة قائلا : « علمى يا ابنة الخالة نحلم . . » فنمضى سويا إلى الروض . وكان يتوقف فجأة فى الفجوات بين تفاريج الشجر ، حيث تطفو تلك الهبوة البيضاء مثل نديف القطن يبطن بها القمر فجوات الغاب . ويقول لى وهو يشد على يدى : « انظرى إلى هذا ، انظرى إلى هذا ! ولكنك لا تفهمينى ؛ إنى لأحس ذلك . لو أنك تفهمينى لكنا سعداء . لابد من الحب لمن شاء المرفة » . وكنت أضحك وأقبله ، أقبل هذا الصبى الذى يحبنى مستهلكا فى حبى . وكان أيضا بعد العشاء كثيرا ما يجلس على ركبتى أمى قائلا لها : « إيه يا خالة ، قصى علينا شيئا من قصص الحب » فتحكى له أمى على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية ، والناس يرددون منها الألوف بعد الألوف من صحيحه ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فقد كانوا يستجيشون لها ثم تملكهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به

وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات : لطيفها وفظيعها ، وكان فى بعض الأحيان يدق بيديه مرددا : « وأنا أيضا ، وإنى لأعلم بالحب منهم جميعا » . ثم جعل يتحبب إلى متنزلا فى استحياء وحنان عميق كانا مثارا للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان فى كل صباح يقطف لى جنى الزهر ، وفى كل مساء قبل صعودى إلى مقصورتى يلثم يدى هامسا : « أنا أهواك ! »

لقد أذنبت ، وركبني أعظم الذنب . وما زلت على هذا نادمة باكية لا يرقأ لي دمع . وإني لني التكفير عن هذا طيلة حياتي ، وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيئة المترملة ، أجل أنا له ، الأرملة . كنت ألهو بهذا الحب الصبياني بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت المرأة الخلوب ذات الدلال ، وكأني إلى جنب رجل ألاعبه وأخاتله . لقد فتنت هذا الغلام ودلهته بحبي . وكان الأمر عندي لعباً ومعابثة ، وعند أمي وأمه تسلية وترويحا . لقد كانت سنه اثنتي عشرة سنة ، فتأملوا ! من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الدري ! فكنت أقبله ما شاء ، بل كنت أكتب رسائل العشق إليه وأقرئها أمي وأمه قبله ؛ وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد احتفظت بها . وكان معتقدا أن صلتنا الغرامية كانت سرا مكتوماً ، وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلا والأمر في عرفه الجد كل الجد . وقد غاب عنا أنه من بني سانتيز

ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام . وفي ذات مساء ونحن في الروضة خر جاثياً عند قدمي ولثم حاشية ثوبي في اندفاع المهتاج مردداً : « أنا أهواك ، أهواك ، أنا ميت في هواك . وإذا خنتني في يوم من الأيام ، أسامحة أنت — إذا هجرتني إلى سواي فإني صانع مثلما صنع أبي ... » وأردف في صوت عميق يقشعر له البدن : « أنت عليمة بما صنع ! »

ولما وجمت ولم أحر جوابا نهض وشب على أطراف قدميه ليبلغ إلى أذني — وكنت أفرع منه طولا — ودعاني باسمي ، باسمي الأول ، « جنفييف ! » بنغمة حلوة جميلة رقيقة شملتني منها قشعريرة سرت من فرعي إلى أخمص قدمي

فغمغمت : « لنرجع ، لنرجع إلى الدار » . فلم ينبس بكلمة وسار في إثري ، فلما همما بصعود درج السلم استوقفني قائلا : « أتعرفين ؟ إذا هجرتني فإني قاتل نفسي »

فعلمت هذه المرة أني تماديت حيث لا يجب التمادي وتكلفت منه التحفظ . ولما أن كتب ذات يوم يعتب علي أجبته : « أنت اليوم أكبر من عيث المزاح وأصغر من جد الحب . وإني في الانتظار » . وحسبتني بهذا قد أبرأت ذمتي

وفي الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية! فلما عاد في الصيف التالي كنت مخطوبة . فأدرك الأمر في الحال ، والتزم مدى ثمانية أيام هيئة الفكر الغارق في التفكير . فأهمني ذلك وساورني منه قلق شديد

وفي صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومي فوقعت عيناي على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتها وفتحتها وقرأت فيها : « لقد هجرتني ، وأنت تعلمين ما قلته لك . لقد قضيت على نفسي بالموت. وإني لأحب ألا يعثر بي أحد غيرك ، فتعالي إلى الروض في نفس الوضع الذي قلت لك فيه أني أهواك وتطلعي في الفضاء »

فكدت أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابي وهرولت على عجل أجري وأجري وأكاد أتساقط إعياء إلى المكان المعين . وإذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الأرض في الوحل . فقد كانت الليلة مطيرة . ورفعت طرفي فأبصرت شيئاً معلقاً يترجح بين الورق ، وكان يوم ريح ، ريح شديدة

ولا أدري بعد ذلك ماصنعت . لقد صرخت أول الأمر ولا ريب ، ولعلني سقطت بعدها مغشيا علي ، ثم عدوت هائمة على وجهي إلى القصر . وثبت إلى الرشد في فراشي وأمي إلى جانبي

تخيل إلي أني رأيت ما رأيت كله في هذيان حلم فظيع . فغمغمت: « وهو ، هو ، جونتران ؟ » فلم يجبني أحد . إنها الحقيقة

ولم أجرؤ على طلب رؤيته . وطلبت إليهم خصلة طويلة من شعره الأشقر . وهذي ... هذي ... هي ... »

ومدت العانس يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء وأخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيها الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطوبة دون إبداء سبب ... وبقيت ... العمر كله أرملة ... أرملة ... هذا الصبي ابن الثلاثة عشر ربيعاً » . ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلا بدموع الذكرى

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد، مال صياد غليظ الجسم قد أفسدت عليه الحكاية صفوه إلى أذن جاره هامساً : ألا ترى أن رقة الوجدان إلى هذا الحد بلاء وشر بلاء !

ع . ص

! ؟ !

* قال الشاعر الألماني جوته لصديقه أكيرمان *

* كل امرئ يأتي عليه حين من *

* دهره يظن فيه أن آلام *

* فرتر إنما كتبت *

* له خاصة *

{الطبعة الثامنة}

{الثمن ٢٥ قرشاً}

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف ﴿جوته﴾ الألماني

ثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد .. وهي تطلب من جميع المكتبات ومن إدارة الرسالة

ت : ٢٧٤٩٠

مطبعة الرسالة